فقه اللغة العربية

او علم الفيلولوجي

PHILOLOGY

هذا علم من العلوم الحديثة التي استحدثها علماء الغرب وحملها الينا المستشرقون النابهون الذين يعنون بدراسة اللغات الشرقية وعلى رأسها اللغة العربية الشريفة . واذا ذكرنا المستشرقين فينبغي لنا أن نذكر على رأسهم — فيما يختص بهذا البحث — العالم المستشرق جويدي الكبير ، استاذ فقه اللغة العربية في الجامعة المصرية القديمة. ويحله الاستاذ السنيور جويدي الصغير استاذ هذا العلم في الجامعة المصرية الحديثة.

ليس غرضنا في هذا الفصل أن نلم بجميع فروع هذا العلم الواسع الأطراف أو أن نشرحه شرحاً وافياً مستفيضاً ، فهذا ما يعجز دونه فطاحل العلماء ، وانما غرضنا أن نلمّ في مرامي هذا البحث الملمة بسيطة كي يتيسر للطالب العربي أن يحفظ في ذهنه صورة واضحة لهذا العلم الشائق الذي يشغل المستشرقين المولعين بدراسة (المشرقيات) ، ورجاؤنا من وراء هذا ، أن يشغف ابناء هذه اللغة العربية الشريفة بدراسة لغتهم دراسة علمية صحيحة ، على أحدث الأساليب الفنية التي استنبطها اساتذتنا المستشرقون ، فيدركوا أسرارها وفضائلها التي لا تعد ولا تحصى . . .

وأول ما ينبغي أن نتناوله في هذا الفصل هو تعريف هذا العلم لغة واصطلاحاً ، كي يدرك القارىء غرض هذا البحث وما يقع في دائرته من ابحاث أخرى تتصل به اتصالا يختلف شدة وضعفاً باختلاف هذه الأبحاث نفسها .

اشتقت كلمة (فيلولوجي) من كلمتين يونانيتين [1] (Philos) و (Logos) ومعنى الأولى (محب) والثانية (الكلام) ، واذن فيكون معنى الكلمة (محب الكلام) كما تحلل كلمة فلسفة (Philosophy) بمعنى (محب الحكمة) . هذا معنى الكلمة من حيث تركيبها . وأما معناها الاصطلاحي ، فقد ذهب في تحديده

---

(١) اضطررنا الى استعمال الأحرف الافرنجية بدلا من الأحرف اليونانية نفسها لفقدان الأخيرة في جل المطابع العربية

العلماء مذاهب شتى (١) فمنهم من يعتقد أن هذا العلم مجرد درس قواعد الصرف والنحو وانتقاد نصوص الآثار الأدبية وهو رأي فاسد ؛ ومنهم من يذهب الى أنه ليس بدرس اللغة فحسب ؛ ولكنه بحث عن الحياة الروحية في كل وجوهها ، وهذا من حيث التعبير عنها بواسطة اللغة والألفاظ وليس من حيث تنقل احوالها في تقلبات التاريخ إذ هذا موضوع علم التاريخ ، وليس من حيث التعبير عن هذه الحياة الروحية بواسطة الفنون الجميلة وهذا موضوع علوم أخرى منها تاريخ الفن مثلا (والاستانكا) : يعني علم الحسن الى غير ذلك . ولئن صح هذا الرأي فمن الممكن أن ندخل في دائرة العلم يعني الفيلولوجي علم اللغة وفنونها المختلفة مثل تاريخ اللغة ومقابلة اللغات والصرف والنحو والبيان والعروض والبديع وعلم الآداب في في معناه الأوسع وهو يشتمل على تاريخ الآداب وتاريخ العلوم من حيث تصنيف الكتب العلمية وتاريخ اللغة من حيث تدوينه في المجاميع والمجلات وتاريخ الأديان من حيث درس الكتب المقدسة ومن حيث شرحها وبيانها ومن حيث تأليف الكتب الدينية واللاهوتية ، وتاريخ الفلسفة من حيث تأليف كتب الكلام والحكمة الى غير ذلك . ولا سبيل الى معرفة كنه هذه الحياة الروحية الا بدرس احوال المركز الذي نشأت فيه تلك الآثار الأدبية والذي كان سبباً من أسباب احداثها وأثر فيها تأثيراً نافذاً

ومما يترتب على ذلك أن (الفيلولوجي) من أوسع العلوم دائرة وأن صاحبه يحتاج الى سعة علم في مواضيع شتى والى دقة نظر . وهذا لادراك أهمية كل عنصر من العناصر التي اشتركت في انتاج هذه الآثار الادبية والتقدير نفوذها ولفهم كنه مساعدتها ومزاحمتها . ولا بد لكل فيلولوجي يريد أن يبحث عن أوائل الادب عند قوم من الاقوام من أن يدرس درجة التمدن التي أدركها هذا الشعب وان يتأمل المناسبات التي كانت تجري بينه وبين اقوام أخرى وما أثر فيه من حوادث تاريخية وسياسية . ولا يكفي لمن يريد أن يتعاطى الدرس في كتب المجوس

(٢) اقتبسنا هذا الجزء من محاضرات العلامة جويدى الصغير التي القاها في الجامعة المصرية عام ١٩٢٧ ، وهي لم تطبع

الدينية مثلا أن يعرف اللغات الايرانية فحسب ولكن عليه أن يعمق النظر في كل وجوه حياة الفرس وفيما أثر في هذا الدين من عقائد ملل أخرى ، إلى غير ذلك مما لا فائدة تحته في هذا المقام .

والخلاصة ان الفيلولوجي علم يستدعي من صاحبه الانعام الطويل والجهد المتواصل . ومما لا شك فيه انه لا يتسع لكل فيلولوجي ان يجيد كل جزء من اجزائه ، ومنهم من يتعاطى جزءاً ومنهم من يتعاطى جزءاً آخر ، وكلهم يساعدون في سبيل تقدم هذا العلم الشريف الذي يمكننا ان نسميه ركناً من اركان النهضة الحديثة . ولكن على كل واحد منهم الا يتغافل عن تأمل الأجزاء الاخرى وعن درسها ليكسب هذا الاتساع في فكرته التي يميز أبين تمييز بين العلماء الذين يفهمون كون التاريخ ويقدرون أهمية تقلبه وذوي العقل السخيف الذين يقتصرون على دروس خصوصية أو على مسائل لا أهمية لها .

— (علم اللسان Linguistique) —

ليس من الممكن أن ندرس موضوعاً فيلولوجياً ما وخصوصاً تاريخ لغة من اللغات الا بشرط أن نقف من قبل على نتائج علم اللسان وأساليبه الجديدة اذ تقدم هذا العلم في السنوات الأخيرة تقدماً عجيباً واحدث انقلاباً عظيماً في ميدان الفيلولوجي كله . ومثل صاحب الفيلولوجي (Phibologue) الذي لا يعتني بهذا التقدم كمثل طبيب لا يعتني بتقدم الكيمياء في ايامنا او باستعمال اشعة الراديو في معالجة بعض الامراض .

وقبل أن نشرع في تأمل علم اللسان وأساليبه وأهميته لدرس الفيلولوجي لا بد لنا من أن نبحث عن محل هذا العلم في ترتيب العلوم حتى يتبين لنا ما بينه وبين العلوم الأخرى من المناسبات .

لا شك أن علم اللسان يشتمل على عناصر شتى وأنه من الواجب علينا أن نعتبره من جهات نظر شتى وخصوصاً من جهة نظر فلسفية ثم من جهة نظر طبيعية فتاريخية . ويترتب على ذلك أن لعلم اللسان أساليب ثلاث (١) أسلوباً فلسفياً (٢) أسلوباً طبيعياً تجريبياً (Expérimental) (٣) أسلوباً تاريخياً

أما العنصر الأول الفلسفي فيبحث في المناسبات بين الفكر وبين المتكلم وما للكلام بذاته من جمال ورونق. وقد قال أحد علماء الطليان « إن كل عبارة ينطقها اللسان فيها عنصر جمال . » وهذا ما يشعر به الانسان اذا تأمل الفاظ اللغات على تنوعها . أما العنصر الثاني الطبيعي فيبحث في الدفاع وعلاقة اللسان به من حيث أنه معبر عما فيه من أفكار وأذن فينبغي أن ندرس (اللسان) درساً فسيولوجياً وأن ندرس الدفاع ايضاً على هذا النحو من الدرس وما بين الاثنين من علاقات من حيث ان الأول أداة للتعبير عما يمر في الثاني من أفكار.

أما العنصر الثالث وهو التاريخي فهو أشد العناصر ارتباطاً بعلم الفلولوجي ، وهو يبحث في الادوار المختلفة التي مرت على لغة من اللغات ونواميس تكوين تلك اللغة وعلاقتها مع اللغات الأخرى وما الى ذلك من ابحاث تتعلق في صبغة اللغة . ومما لا ريب فيه أن هذا العنصر من أهم العناصر التي ينبغي أن يعنى بها الباحثون لشدة اتصالها بعلم (الفلولوجي) كما يتضح ذلك مما قدمنا في شرح هذا العنصر . وينبغي أن نشير الى أنه يتفرع من هذا العنصر الأخير درس اوائل اللغات وآثارها الأدبية واستعمال اللهجات ونفوذ عوامل شتى على اللغة كنفوذ السياسة والتجارة واختلاط الشعوب . وتكون اللغة الأدبية ونموها وانحطاطها الى غير ذلك مما نرجو أن نخصص له فصلا آخر فيما بعد

القاهرة — اسعد موسى الحسيني

كيف يسلو عن الخمر

قال أحد الأعراب

تعاتبني في الراح امّ كبيرة — وما قولها ـ فيما اراه ـ مصيب
تقول الا تجفو المدام فعندنا — من الرزق تمر مكثب وزبيب
فقلت رويداً ما الزبيب مفرّحي — وليس لتمر في العظام دبيب
فان حميداً علها في شبابه — ولم يصح منها حين لاح مشيب